

العظة التي القاها سيادة المطران رولان أبو جودة

خلال القداس الذي أقيم في بيروت الأشرافية يوم الجمعة ٢٠٠١/٩/١٤

في الذكرى ١٩ لاستشهاد

الرئيس الشيخ الحلم بشير الجميل

"شرفنا صاحب الغبطة والنيافة الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير، بطريرك انطاكية وسائر المشرق، الكلي الطوبى، بتكليفنا تمثيله في احياء هذه الذكرى السنوية التاسعة عشرة لاستشهاد المرحوم الرئيس الشيخ بشير الجميل ورفاقه، فنقوم بالمهمة بكل طيبة خاطر اذ يعزينا ان نخشع معكم في ذكرى من غاب وجهه، ولكن ذكراه ما زالت مشتعلة في الخواطر والضمائر وفي حنايا الوطن وجوانب التاريخ. سمع قول المعلم الالهي: "اذا تبتم على كلمتي، فانتم حقا تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرككم" (يو ٨، ٣١ و ٣٢) فسعى ان يثبت على كلمة المعلم ليكون تلميذا للمسيح يعرف الحق والحق يحوره، فيناضل في سبيل تحرير وطنه، مقاوما ورئيسا، فشهيدا.

اولا: ناضل في سبيل تحرير وطنه مقاوما.

اجل، اراد الشيخ بشير لبنان وطنا للاديان والقيم والحريات على انواعها. ولكنها حريات تنتهي جميعا حيث تبتدئ حريات الاخرين.

فاراده لا مزرعة بل وطنا حقيقيا، بمقوماته كوطن، وحدوده المعترف بها دوليا، وبجميع ابنائه.

اما قال في آخر خطاب له القاه في مثل هذا اليوم في دير الصليب، فكان بمثابة وصيته الاخيرة: "لا نريد لبنان وطنا قوميا مسيحيا، بل وطنا للمسيحيين، ولسوانا اذا ارادوا، ولكننا نريده، على وجه التأكيد، وطنا لنا"، ووضح انه وطن نعيد فيه بناء الكنائس ودق الاجراس، ودق الاجراس تعبير خارجي عن معتقد باطني راسخ تجب الشهادة له. ولقد اراد الشيخ بشير لبنان وطنا لجميع ابنائه على السواء، لكل منهم ما لأخيه من حقوق وعليه ما عليه من واجبات. وهذا معبر عنه بقوله في الخطاب عينه: "ولبنان يجب ان يكون لجميع ابنائه وطوائفه ومعتقداته، لكن يجب ان يكون للجماعة المسيحية في الشرق واحة امان وطمانينة".

كما اوضح، من جهة اخرى، ان الدولة "يجب ان تكون هي ومؤسساتها لا مسيحية ولا اسلامية".

ولقد قاوم البشير في سبيل الوطن الذي اراده ليكون على ما يريده ان يكون عليه.

ولا بد هنا من التنبيه الى ان ما اوتي من عراقة المحتد واسباب الرخاء والمنزلة الاجتماعية كان يغنيه عن تحميل نفسه ما حملها في سبيل وطنه من مشقات، غير انه حمل قضية لبنان بين يديه، واخذ على عاتقه الدفاع عنها بشتى الوسائل وفي مختلف المحافل.

فتحمل "مسؤولية تنظيم المقاومة العسكرية فألب الشبان حوله ودرّبهم على القتال ونفخ في صدورهم روح الحماسة بما دان به من مبادئ وطنية وقيم روحية، فاندفعوا ورااه على طريق شائك محفوف بالاطار شقه لهم، وما تراجعوا حتى التضحية بالنفس على مذبح الوطن" (كلمة المطران نصرالله صفير في ذكرى استشهاد الشيخ بشير الاولى، في ١٤/٩/١٩٨٣): ارجى الاحتفال فلم تلق. راجع كتابه "وغابت وجوه"، الجزء الاول، ص ٣٥٥، وما زالوا على الامانة محافظين.

ومن اسرار نجاحه انه ما تعود ان يكلف احدا من رفاقه فوق ما يكلف نفسه من مشقات: في الاودية وعلى الجبال، في الحر والقر، في الليل والنهار، وخصوصا على خط النار يتلقى الحمم والشظايا.

فغدا رمز المقاومة المسيحية، واطلق عليه لقب القائد، وهو لقب استحقه لما ابداه من جرأة وقوة، ولما كان له من نفاذ بصيرة وقوة استيعاب، وطاقة تحمل وسرعة في اتخاذ القرار وتنفيذه.

وكان في مقاومته وقيادته لها من دافع عن وطنه فقال: "في خطابه الوصية" فنحن لم نعتد على احد، نحن لم نهجم احدا" ثم اضاف: "على العالم كله ان يعرف ان لبنان لم يكن المعتدي ولا مرة واحدة، فقد كان المعتدى عليه دائما. واننا سندافع عن انفسنا كلما اعتدي علينا".

ذلك، ان غايته من جهاده، على ما قال: "ان نكون اسياذ الارض والقرار وان نعيش في نظام ديموقراطي حر".

ثانيا: ناضل في سبيل وطنه رئيسا

فمن كان ذلك شأنه، وتلك كانت احلامه، ومن ناضل وكافح كالبشير، واتخذ مواقف املاها عليه حلمه الكبير بانشاء وطن مثالي بين الاوطان، لا بد من ان يرتقي من صفوف المقاومة الى سدة الرئاسة. وهذا ما حصل وبقي البشير الشيخ امينا على العهد، محافظا على الامانة، ثابتا على المبادئ الاساسية، ولكنه اصبح اوسع شمولية، وارتقى الى ما هو اسماى وارفح. فقال، في اعقاب انتخابه رئيسا: "كسبنا الرهان، لان هذه هي النتيجة الحتمية، لسنوات النضال الثماني، ومن ربح نضال ثماني سنوات لا يمكنه ان يخسر في آخر دقيقة، وقد حان اليوم وقت القطاف".

ومن جنى هذا القطاف ما قاله في الشعب والدولة وقول الحقيقة: "نحن شعب كان مهددا وقاوم، نحن شعب كان مهددا في وجوده اكثر مما كان مهددا في حريته، وقد مات خمسة آلاف شاب من شباننا ليبقى لبنان حرا مرفوع الرأس. أمل اليوم في ان تتمكن الدولة والجيش اللبناني وكل مؤسسات الدولة من متابعة السير على الطريق نفسها، لنحافظ على المعنويات والكرامة والحرية التي نلناها خلال السنوات الثماني. امنيتي بعد اليوم الا نعود كلبنانيين معقدين تجاه اي كان، والا نخاف من ان نقول الحقيقة لأي كان، فالحقيقة وحدها تجعلنا نستمر ونعيش ورأسنا مرفوع".

من جهة اخرى، ندد بفساد الادارة، وجزم بتطبيق قاعدة العقاب والثواب.

كما حلم ببناء جيش يضاوي جيش فخر الدين يقتحم من دون استئذان ويرهب لا يرهب.

اما نهجه في الحكم فقال عنه: "ان يبحث الآخرون عما نريد لا ان نطلب نبحث نحن عما يريده الآخرون، وان نقول الحقيقة لأي كان، لان الحقيقة وحدها تتيح لنا ان نتابع المسيرة ونعيش مرفوعي الرأس.

ثالثا: حررته الحقيقة فاستشهد

الا نسمع، اخوتي، في هذا القول صدى انجيليا لما قاله السيد المسيح: "تعرفون الحق والحق يحرككم؟" الا نرى فيه موقفا له اوجه شبه بموقف الكنيسة عبر سنوات المحنة القاسية التي عشناها حتى موقفها في هذه الايام، خصوصا؟ فقد قال هو بنفسه: "اننا ابناء للكنيسة مخلصون؟!"

اجل، لقد حرره الحق، فقال البشير المؤمن الحقيقة لنفسه قبل ان يقولها للآخرين.

واعترف بما كان في اثناء المسيرة من الخطاء رجع عنها - والرجوع عن الخطر فضيلة!

بل حاول اصلاحها والتكفير عنها بمد يده الى الجميع دونما استثناء.

وذلك، يقينا منه ان لبنان لن يقوم ويبقى الا بتعاون جميع فئاته تعاوننا مخلصا بروح الاحترام والمحبة المتبادلة.

ان لفي كل ذلك من الصراحة والعفوية والنضج الذي توصل اليه بشير مع ما يميز الرجال من مزايا وصفات ما اكسبه الهالة من الاعجاب والاكبار التي احاطت به.

"ولكنها هي، في الوقت عينه، ما اثارته عليه حفاظ الاشرار وما نكب البلاد برئيسها الشاب، ذي الاربع والثلاثين من السنين" (وغابت وجوه، المرجع عينه، صفحة ٣٥٧)، مع رفاق له كان يعول على تعاون البعض منهم لتحقيق احلامه في قيادة الدولة.

ولكن البشير لم يمت بل استشهد، وليطبق عليه قول السيد المسيح "لا تخافوا الذين يقتلون الجسد ولا يستطيعون قتل النفس، بل خافوا الذي يقدر على ان يهلك النفس والجسد جميعاً في جهنم" (متى ١٠. ٢٨). تمكن الاشرار من قتله جسداً، ولكنهم لم يتمكنوا من قتله نفساً، وروحاً! بقي حياً في من انجب، وفي قلب شريكة حياته، بل في قلب افراد اسرته، وعلى رأسهم صاحب الفخامة الشيخ امين، دون ان ننسى والد الرئيسين ووالدتهما.

فلكل منهم، ولأهل رفاقه في الاستشهاد وذويهم، نجدد التعزية القلبية، باسم غبطة ابينا السيد البطريرك الكلي الطوبى، وباسمنا، طالبين لهم العزاء والرجاء.

ألا اوسع الله للرئيس الشهيد ولرفاقه اخداره السموية.

وحقق ما تمناه للوطن والدولة من عزة واستقلال وسيادة وقرار حر".

النيات التي ألقاها خلال القداس ابن الشهيد، الشيخ نديم بشير الجميل:

"يا رب، اعطينا القدرة نتحترم رأي غيرنا وناغيرنا يحترم رأينا. نحن ما خربنا البلد، لا بتفكيرنا ولا بأعمالنا. نحنا دافعنا عن حقوقنا، عن امننا وحرابتنا، وقت الدولة تخلت عن مسؤولياتنا تجاهنا، وتركيت كل المسلحين الغربا يهاجمونا، ويحاولوا يحتلوا مناطقنا.

نحن دافعنا شهدا ودم تندافع عن لبنان وسيادته. ولولا اعمالنا البطولية، كان لبنان اليوم اسمو فلسطين!

كل هالتوقيفات وهالتحقيقات، يللي كل الدول الستالينية نسيوها، ما راح تخوف حدا، طالما في بالقضاء امثال رالف رياشي. كرمال لبنان واستقلالو وسيادته عَ الـ١٠٤٥٢ كلم، ٢ في كثير ناس ماتوا واستشهدوا وضحوا بدمن وحياتن وعلى رأسن بشير ورفاقو.

مش مصيبة اذن، اذا توقفنا وتعذبنا بسبب وطنيتنا، وتعلقنا باستقلالنا وسيادتنا.

ما حدا يفكر انو بهالطريقة، يابيسكتونا يا بيهجرونا. نحنا الشباب رح نضل متمسكين بأرضنا، رح نضل نضحي تا نحقق اهدافنا ونبني مستقبلنا هون، بهالبلد يللي هوّي لنا، لنا وبس.

من هون، من ذكرى استشهاد بشير، من الاشرافية بالذات، بوجه نداء لكل الشباب تايبقوا بلبنان وما يتركوه، لأنو لبنان بحاجة لنا كلنا.

وتا يولد لبنان من جديد، معكن منكمّل المشوار".